

تفسير القرآن بالقرآن: قيمته ومباحثه وضوابطه ومصادره

إعداد

د. محمد قجوي

جامعة محمد الخامس. الرباط

المغرب









بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول: مفهوم تفسير القرآن بالقرآن

لم يهتم القدماء ولا المحدثون بتعريف " تفسير القرآن بالقرآن "، بل اكتفوا في ذلك بذكر نماذج من وجوهه، مرددين عبارة الإمام ابن تيمية رحمه الله الشهيرة في أحسن طرق التفسير، سنذكرها في بيان مباحث هذا الفن ووجوهه.

وأنسب تعريف له أن يقال: تفسير القرآن بالقرآن هو التفسير القائم على الاستدلال بالقرآن في بيان القرآن، بحمل بعضه على بعض حتى تتضح معانيه، ويزول إشكاله، وتتضح أحكامه وقضاياه.

وقد ارتضينا في هذا التعريف المفهوم الواسع لمصطلح التفسير، الذي عليه أغلب أرباب هذا الفن قولا وعملا[1]. وهو يشمل بيان معاني المفردات والتراكيب والموضوع، إلا أن استمداده هذا الفن قاصر على القرآن الكريم وحده.

فقولنا: بحمل بعضه على بعض؛ يشمل كل وجوه الاستدلال بالقرآن الكريم؛ سواء أكان بظاهر الآية أم بقرينتها أم بسياقها أم بآية أخرى أم بقراءة أخرى أم نحو ذلك.

وقولنا: حتى تتضح معانيه يزول إشكاله؛ يشمل كل صور الوضوح؛ من وضوح معاني مفرداته وتراكيبه واتساع دلالاته، وزوال كل إشكالاته، سواء أكانت بسبب الإيجاز أم الحذف، أم إيهام التعارض، أم نحو ذلك.

وقولنا: وتتضح أحكامه وقضاياه: يشمل كل صور الوضوح، من وضوح أحكامه وقضاياه والتئام عناصرها المتفرقة قبل الجمع والتأليف.

---

[1] أي في تعاريفهم وتفاسيرهم التي جمعوا فيها كل مباحث التفسير. انظر البحر المحيط 1/ 26، والبرهان في علوم القرآن 33/1، والإتقان 192/4-195، وتفسير ابن باديس: 17



المبحث الثاني: قيمته

يعتبر تفسير القرآن بالقرآن أجل أنواع التفسير وأولاها بالقبول إذا تحققت فيه شروطه العلمية، ولبيان هذه القيمة الشرعية والعلمية نورد جملة من العناصر المؤسسة لهذا الأمر:

أولا: تفسير القرآن بالقرآن أصل من أصول التفسير

وهذا واضح في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهما حافلان بالنصوص المتضافرة في بيان هذا الأمر وترسيخه، ويمكن أن نصنفها بحسب دلالاتها على النحو الآتي:

1. النصوص الآمرة بالرجوع إلى القرآن الكريم

لقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية نصوصا تحض على الرجوع إلى القرآن الكريم، والاحتكام إلى آيه في الفهم والتفسير والترجيح.

أما القرآن الكريم: فمنه قوله تعالى:﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾[1]، وقوله أيضا:﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الَاخِرِ** ﴾[2]، وفي الآيتين أمر واضح بالرجوع إلى كتاب الله تعالى فيما أشكل على المسلمين وحصل بسببه النزاع والاختلاف، سواء كان ذلك من معانيه وأحكامه، أو من أمور الدين عامة. وما خص الكتاب بهذا الرجوع إلا لكونه أصلا يبنى عليه الفهم والتفسير، ودليلا حاسما للنزاع والخلاف. قال ابن كثير رحمه الله:"هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى:﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ فما حَكَم به الكتاب والسنة وشَهِدَا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى:﴿ **إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النِّزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله واليوم الآخر"[3].

---

[1] الشورى الآية:10

[2] النساء الآية:59

[3] تفسير القرآن العظيم 1/ 519



وأما السنة الشريفة: فمنها مَا جَاءَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**..)[1]

وفي لفظ الترمذي: (**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**..)[2].

قال الطيبي:" ومعنى التمسك بالقرآن العمل بما فيه، وهو الائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه."[3]، ويدخل في عمومه الاحتجاج بآيه، والترجيح بأدلته، والخضوع لسلطانه.

2. النصوص الشاهدة بأحسنية التفسير القرآني

وهذا أوضح في بيان قيمة هذا الفن، وكونه أصلا عظيما من أصول الفهم والتفسير، لأن هذه النصوص تشهد بأن بيان القرآن هو أحسن تفسير وأصدق بيان، لأن بعضه يصدق بعضا ويؤيده ويفسره[4].

ومن هذه النصوص قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[5]،

---

[1] صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، الباب: 4، ح: 2408

[2] سنن الترمذي، أبواب المناقب، ح: 3788

[3] الكاشف عن حقائق السنن 12/ 3909

[4] قال ابن الجزري في فوائد تعدد القراءات وتنوعها:" ومنها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضا، ويبين بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد، وأسلوب واحد، وما ذاك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم." النشر 1/ 47

[5] الفرقان الآيتان: 32- 33



وهو في سياق جدال المشركين في القرآن الكريم وفي كيفية نزوله، وقد بين الله عز وجل فيه أن الذين يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم لَا يَأْتُونَهُ بِمَثَلٍ لِيَحْتَجُّوا به عَلَيْهِ بِالْبَاطِلِ، إِلَّا جَاءَهُ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي يَدْمَغُ ذَلِكَ الْبَاطِلَ، وهو أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ وَكَشْفٍ وَإِيضَاحٍ للحَقَائِقِ.[1]

وما كان ذلك كذلك إلا لأن المشركين كلما حاولوا أن يَلبِسوا على الناس معاني القرآن ومقاصده، ويشككوا في حقائقه إلا أنزل الله عز وجل من الآيات ما ينسخ باطلهم، ثم يحكم الله تعالى آياته ببيان معانيها وحقائقها وأحكامها ومقاصدها، مصداقا لقوله عز وجل:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ الحج. فَإِلْقَاءُ الشَّيْطَانِ في أمنية الرسول معارضتها بالوسوسة للنَّاس بِالتَّكْذِيبِ وَالْعِصْيَانِ، وإلقاءِ المطَاعِنِ والشبهاتِ فِي قُلُوبِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ يَبُثُّونَهَا فِي قَوْمِهِمْ من أجل التشكيك وَصَرْفِ النظَرِ عَنْ تَذَكُّرِ الْبُرْهَانِ، وَنسخُها إِزالةُ اللَّهِ تَعَالَى لها بِبَيَانِه الْوَاضِحِ، " وَذَلِكَ هُوَ إِحْكَامُ آيَاتِهِ، أَيْ: تَحْقِيقُهَا وَتَثْبِيتُ مَدْلُولِهَا وَتَوْضِيحُهَا بِمَا لَا شُبْهَةَ بَعْدَهُ إِلَّا لِمَنْ رِينَ عَلَى قَلْبِهِ ". التحرير والتنوير 17/ 298-299

ومنه أيضا قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الأنعام الآية: 56، والمقصود أن الله عز وجل فصل آيات القرآن تفصيلا بَيِّناً واضحاً مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ الوارد في سورة الأنعام الَّذِي لَا فَوْقَهُ تَفْصِيلٌ، لِيَعْلَمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بِتَفْصِيلِهَا كُنْهَهَا، وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ[2]. وفيه إشارة إلى تضافر آيات القرآن جملة على بيان المراد من كلام الله تعالى بيانا واضحا مفصلا، تتضح به المعاني والأحكام.

---

[1] المحرر الوجيز 437/6، وتفسير القرآن العظيم 6/ 109، وأضواء البيان 5/ 299

[2] البحر المحيط 4/ 529، والتحرير والتنوير 7/ 260، والعذب النمير 1/ 357



ومنه أيضا قوله تعالى:﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلاَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا (٥٨)﴾[1]

وفيه تعليل الرجوع إلى الكتاب والسنة في حال النزاع والخلاف بكونه خيراً لهذه الأمة، وأحسنَ عاقبةً ونَظَرًا وَتَأْوِيلًا مِنْهُمْ إِذَا انْفَرَدوا بِتَأْوِيلِهِمْ[2]. وهو تعليل يشهد بقوة هذا الدليل، وقيمة التفسير المستند إليه.

3. النصوص الموجِّهة إلى تفسير القرآن بالقرآن

وهذا دليل آخر يشهد بأصلية هذا النوع من التفسير، لأن هذه النصوص تهدي وترشد إليه بشكل واضح، بل إن في بعضها قدراً من إلجاء طالب الفهم والتفسير إلى هذا النوع من البيان، وذلك بإحالته على النصوص التي تزيل الإبهام وتفصل الإجمال، وتبين الإشكال.

ومن ذلك قوله عز وجل:﴿ وَعَلَى ٱلذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُۖ .. ﴾[3] ، فقد أخبر الله تعالى أنه حرم على اليهود أموراً لم يبينها هنا، ولكنه أحال على موضع بيانها وتفصيلها في القرآن، ولا يمكن إزالة الإجمال الحاصل بسبب الإبهام في هذه الآية إلا بالرجوع إليه، وحملها عليه؛ وهو قوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱلذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِے ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ

[1] النساء الآية: 59

[2] معاني القرآن 2/ 68، والمحرر الوجيز 589/2، والبحر المحيط 3/ 688

[3] النحل الآية: 118



ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[1]. [2]

ومنه أيضا قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ ﴿١﴾ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿٢﴾﴾[3]، فقد استثنى الله عز وجل من حلية الأنعام شيئا لم يوضحه في هذه الآية، ولكنه أحال على موضع بيانه وتفصيله في آية أخرى، ولإزالة هذا الإجمال بسبب الإبهام في صلة الموصول يلزم حمله على موضع التفصيل، وهو قوله تعالى:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ..﴾[4]. [5]

[1] الأنعام الآية: 147

[2] تفسير القرآن العظيم 2/ 591، وأضواء البيان 3/ 383

[3] المائدة الآية: 1- 2

[4] المائدة الآية: 4

[5] تفسير القرآن العظيم 2/ 5، وأضواء البيان 2/ 3



ومنه أيضا قوله عز وجل:﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ..﴾[1]، ففي هذه الآية إجمال لم يتضح بسببه تمام المعنى، ولكنها أحالت على بيانه وتفصيله في موضع آخر، وهو قوله تعالى:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾[2].[3]

وغيرها من النماذج الأخرى.

ومن السنة ما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: (**لَمَّا نَزَلَتْ** ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ..﴾[4] **قُلْنَا**: **يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ ؟ قَالَ**: **لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ** ﴿ لَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾: **بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ**:﴿

---

[1] النساء الآية: 126

[2] النساء الآية: 3

[3] تفسير القرآن العظيم 1/ 562، وأضواء البيان 1/ 421

[4] الأنعام الآية: 83



يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ [1].)[2]، ففي هذا الحديث فسَّر الرسول صلى الله عليه وسلم " الظلم " بالشرك استنادا إلى آية لقمان، وفي تفسيره توجيه واضح إلى بيان القرآن بالقرآن، فعبارته صلى الله عليه وسلم (**أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ**)؟ فيها إشعار بأهمية استحضار النصوص المتعلقة بمحل الإشكال، وضرورة حمل بعضها على بعض من أجل البيان والإيضاح.

ومن نظائر هذا التفسير الذي استند فيه صلى الله عليه وسلم إلى القرآن ما ورد عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ:**﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3])[4]، وهو تفسير للدعاء بما جاء في تعقيب الآية.

ومنه أيضا ما ورد عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (﴿ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾[5] **خَمْسٌ** ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي

---

[1] لقمان الآية: 12

[2] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الباب: 8، ح: 3181، ومواضع أخر، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، الباب: 56، ح: 124

[3] غافر الآية: 60

[4] سنن أبي داود، كتاب الصلاة، ح: 1479، وسنن الترمذي، أبواب التفسير . سورة البقرة . ح: 2969، و . سورة غافر . ح: 3247، وقال:"هذا حديث حسن صحيح"، وسنن ابن ماجة، كتاب الدعاء، ح: 3828، ومسند أحمد، مسند الكوفيين، ح: 17888 و17919 و17924 .

[5] الأنعام الآية: 60



نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٣﴾[1])[2] ، وهذا من تفصيل المجمل بآية أخرى ورد فيها التفصيل. وغيرها من الأمثلة التي تفيد التوجيه إلى تفسير القرآن بالقرآن.

ثانيا: عناية الصحابة والتابعين بتفسير القرآن بالقرآن

وهذا أمر واضح جلي في تفاسيرهم رضي الله عنهم، فمروياتهم حافلة بهذا النوع من التفسير، تشهد بإمامتهم ودرايتهم بهذا الأصل العظيم من أصول التفسير، وتبين ما طرقوه من مباحثه ووجوهه المتنوعة، ويعد ما خلفوه من تراث عظيم في هذا الباب أصلا في مباحث هذا الفن ووجوه بيانه، ومادة علمية غنية أفاد منها المصنفون في علوم القرآن والتفسير؛ كعلم الوجوه والنظائر، وكليات القرآن، وتوجيه المتعارض والمشكل، وتوجيه القراءات، وبيان التناسب، وبيان النسخ، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتفصيل المجمل، وبيان موضوعات القرآن وأحكامه، وغير ذلك.. مما يستدعي عناية خاصة بهذا التراث جمعاً وتحقيقاً ودراسةً، تتحقق بها فائدة التقعيد لهذا الوجه من التفسير[3].

ثالثا: إجماع العلماء على قيمة تفسير القرآن بالقرآن

أجمع العلماء قديما وحديثا على أن أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، ومن جملة أقوالهم في ذلك:

قول الإمام الزمخشري (ت 538هـ):" وَأَسَدُّ الْمَعَانِي مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ." الكشاف 3/ 473، ونقله غير واحد من المفسرين منهم: الإمام النسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل 2/ 696، والإمام أبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط 8/ 383، والإمام الألوسي (ت 1270 هـ) في روح المعاني 11/ 33، وغيرهم.

---

[1] لقمان الآية: 33

[2] صحيح البخاري، كتاب التفسير . سورة الأنعام . الباب:1، ح: 4351، ومواضع أخر

[3] انظر تفسير القرآن بالقرآن دراسة تاريخية ونظرية: ؟؟؟؟



ومنها أيضا قول الإمام ابن تيمية:" فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟ فَالْجَوَابُ: إنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ." مقدمة في أصول التفسير: 39، ونقله عنه غير واحد من العلماء، منهم: الإمام ابن كثير (ت 774هـ) في مقدمة تفسير القرآن العظيم 7/1، والإمام الزركشي (ت 794هـ) في البرهان في علوم القرآن 2/ 175، والإمام السيوطي (ت911 هـ) في الإتقان 200/4.

ومنها أيضا قول الإمام ابن القيم (ت 751 هـ):" تفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير."[1]، وقوله أيضا:" تفسير القرآن بالقرآن هو أولى التفاسير ما وجد إليه السبيل."[2]

وقول الإمام عبد الحميد الفراهي (ت1349هـ): " أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه هو أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً ."

وقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت 1393هـ) في سبب عنايته ببيان القرآن بالقرآن، قال: " لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جل وعلا."[3]

وقول الإمام محمد أبو زهرة (ت 1394هـ):" فأعلى المراتب تفسير القرآن بالقرآن."[4]

وغيرها من النصوص التي تنوه بقيمة هذا التفسير، لعلو مصدره وأولويته بالنسبة لغيره من المصادر.

رابعا: إشكالات لا تنقص من قيمة تفسير القرآن بالقرآن

1. مسألة الفروق، وصحة تفسير القرآن بالقرآن

ذهب كثير من العلماء إلى نفي الترادف في القرآن الكريم، حتى بعض من قال منهم بوجوده في اللغة العربية، وذلك لما تميز به هذا الكتاب العزيز من الدقة البالغة في انتقاء مفرداته في معانيها وجرسها وظلالها،

[1] بدائع التفسير 5/ 15
[2] شرح قصيدة ابن القيم 2/ 306
[3] أضواء البيان 1/ 5
[4] زهرة التفاسير 1/ 30



واختيار مواقعها في نظم يستوفي كامل شروط البلاغة والفصاحة[1]، يتحقق فيه الوفاء بالتناسب الصوتي والتناسب المعنوي معاً، ويتسق ذلك كله مع دلالة السياق وأغراض السورة.

ومن ثم امتنع أن يوجد لمفرداته مرادف يؤدي نفس المعنى في كماله ودقته، أو يوجد لتركيبه نظير يستوفي كامل أغراضه[2]، وأن ما جاء فيه من التعبير عن القضية الواحدة – من قصة أو مثل أو موضوع – بمفردات وتعبيرات متنوعة، لا يخلو من نكت وأسرار دقيقة، وإضافات وتقييدات في المعنى، تتناسب مع سياقاتها وأغراض سورها، كما نبه عليه واعتنى به المصنفون في توجيه الآيات المتشابهة.

وإذا كان الأمر كما ذكرنا، فقد يرد علينا سؤال بخصوص تفسير القرآن بالقرآن، كيف يصح مع وجود هذه الفروق؟

والجواب عن ذلك فيما يأتي:

إن هذا الإشكال يتعلق بجزئية ضيقة من هذا اللون من التفسير، وهي تفسير مفردة بأخرى – قيل: إنها مرادفة لها – جاءت معطوفة عليها، أو في قراءة أخرى، أو في موضع آخر من القرآن. وإذا علمنا أن نفي الترادف بين المفردات التي قيل إنها مترادفة لا يعني نفي اشتراكها في أصل المعنى، مما يجعلها متقاربة في الدلالة عليه، مع تميز بعضها عن بعض في جزئيات تتعلق بالأوصاف والنسب ونحوها، تبيَّن لنا أن اعتمادها في التفسير أضمن لهذا الأصل المقصود في المعنى، ولاسيما إذا كان القرآن الكريم بعينه قد اعتمد المفردتين في التعبير عن القضية الواحدة، سواء في قراءتين مختلفتين، أو في موضعين مختلفين، ففي ذلك هداية واضحة إلى هذا الاشتراك في أصل المعنى، وهو تقريب هام من المعنى المقصود، ويبقى بعد ذلك أن نلتفت إلى السياقين، وإلى القراءتين، لاستدراك تلك الجزئيات التي تُمَيِّز بعضهما عن بعض، ليكتمل المعنى في أذهاننا، ولا شك أن المعنى المقصود في مثل هذه الحالات إنما يحصَّل بالجمع بين دلالات هذه المواضع كلها؛ أقصد الجمع بين القراءتين، أو الجمع بين السياقين، بحسب ورود المفردتين ..

---

[1] الفروق اللغوية: 177، وذكر أن جمهور العلماء يقولون بمنع الترادف في القرآن، وانظر التعبير الفني في القرآن الكريم: 185 وما بعدها، وخصائص التعبير القرآني 1/ 245 وما بعدها.

[2] بيان إعجاز القرآن: 29، ومقدمة في أصول التفسير: 51 – 53، والبرهان في علوم القرآن 4/ 78



فإذا وقفنا مثلا على قوله تعالى في سورة البقرة:﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[1]، وفي الأعراف:﴿ فَانْبَجَسَتْ ﴾[2]، فالمفردتان معا قد وردتا في سياق الإخبار عن حدث واحد، في قصة واحدة، ولذلك اكتفى معظم المفسرين ببيان إحداهما بالأخرى[3]، لاشتراكهما في أصل المعنى، وهو الانشقاق وخروج الماء، ولكن تميزت كل مفردة عن الأخرى بجزئيات تعلقت بأوصاف هذا الانشقاق وهذا الخروج؛ فدل الانبجاس على بدايتهما، ودل الانفجار على نهايتهما، ووقعت كل مفردة في الموقع الأشكل بها مراعاة لأسرار دقيقة في التناسب[4].

ولا شك أن المعنى المقصود من هذا الإخبار إنما يكتمل بالجمع بين السياقين، فنعلم بعد ذلك أن موسى عليه السلام عندما ضرب الحجر بعصاه انشق، فانبجس منه الماء، وخرج يسيرا قليلا، ثم آل بعد ذلك إلى الانفجار والتدفق الهائل.

---

[1] البقرة الآية: 60

[2] من قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.. ﴾ الأعراف الآية: 160

[3] كما نجده مثلا في والوجيز 1/ 417، ومعالم التنزيل 2/ 207، والجلالين 1/ 217، وفتح القدير 2/ 256، وغيرها، كلها فسرت انبجست بانفجرت. ولذلك ذكر البغوي أن أكثر أهل التفسير يقولون انبجست وانفجرت بمعنى واحد. معالم التنزيل 1/ 77

[4] ذكر ابن الزبير من هذه الأسرار، أن الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَومُهُ} الآية، والوارد في البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ} الآية، فطلبهم ابتداء، وطلب موسى غاية له؛ لأنه واقع بعده ومرتب عليه، فناسب الابتداءَ الابتداءُ؛ فقيل: {فَانْبَجَسَتْ}، وناسب الغايةَ الغايةُ؛ فقيل: {فَانفَجَرَتْ}. انظره بتفصيل في ملاك التأويل 1/ 211 - 213، وذكر الكرماني أن " في البقرة: {كُلُوا وَاشْرَبُوا} فذكر بلفظ بليغ، وفي الأعراف: {كُلوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقناكُم}، وليس فيه:"واشربوا" فلم يبالغ فيه." البرهان في توجيه متشابه القرآن: 30 مع تصرف يسير .. وذكر ابن كثير توجيها آخر، انظر تفسير القرآن العظيم 1/ 101 - 102



وعلى هذا النحو يُفهم ما شاكلهما من المفردات المتقاربة في معانيها، كقوله تعالى: {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}[1] مع قوله:{فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ}[2]، وقوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا}[3]، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ}[4] مع قوله: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ}[5]، وقوله تعالى: {حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}[6]، مع قوله: {حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33)}[7]، وما شابه ذلك ..

وإذا وقفنا أيضا على قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا.. ﴾ النساء الآية: 94، وفي قراءة حمزة والكسائي ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾ علمنا أن المقصود بالقراءتين التثبت من أجل التبين، لأنه قَلَّمَا يَكُونُ التبينُ إِلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ، وقد يكون التثبت ولا تبين. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ هُمَا: مُتَقَارِبَانِ. وأيده ابْنُ عَطِيَّةَ[8].

ولا شك أن هذا المعنى إنما يتحصل لدى الناظر في هذه الآية الكريمة بعد الجمع بين القراءتين.

أما المفردات المعطوفة بعضها على بعض، فتختلف نسبيا عما سبق؛ ولذلك يحتاج الناظر فيها إلى مزيد من التأمل والاحتياط.

فمن قال بنفي الترادف عن القرآن الكريم، وهو الأرجح، يرى أن العطف دليل على تغاير المعاني وتنوعها، وأن هذا التغاير قد يصل إلى درجة التباين والاختلاف، وقد يكون دون ذلك؛ كعطف الشيء على

---

[1] من قوله تعالى: {كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11)} آل عمران الآية: 11، وقوله تعالى: {كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)} الأنفال الآية: 52

[2] من قوله تعالى: {كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)} الأنفال الآية: 54

[3] من قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82)} هود الآية: 82، وهي في قصة هود مع قومه.

[4] الأعراف الآية: 84، والحجر الآية: 74، والشعراء الآية: 173، والنمل الآية: 58، وكلها في قصة لوط مع قومه أيضا.

[5] الذاريات الآية: 33، وهي في نفس القصة أيضا.

[6] هود الآية: 82، والحجر الآية: 74، وهما في القصة السابقة.

[7] الذاريات الآية: 33، وهي في القصة السابقة أيضا.

[8] انظر البحر المحيط 31/4- 32



نفسه، لاختلاف الصفات؛ إذ القاعدة أن الشيء لا يعطف على نفسه[1]، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيرا في العطف وتركه، فإن عطفت فمراعاة لتعدد الصفات وتنوعها، وإن تركت العطف فمراعاة لوحدة الذات؛ كما هو الحال مثلاً في أسماء الله تعالى؛ فأكثر ما تجيء في القرآن الكريم بغير عطف، نحو قوله تعالى: {هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}[2]، وجاءت معطوفة أيضا، نحو قوله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)}[3]، وقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4)}[4].

ومن يرى توسطا في ذلك كالزركشي والسيوطي وأمثالهما، فيرون أن عطف أحد المترادفين على الآخر أو ما هو قريب منه في المعنى، قد يجيء في القرآن لقصد التأكيد، وأن ذلك لا يعتبر تكراراً للمعنى؛ لأن مجموع المترادفين يحصِّل معنى زائدا على انفراد أحدهما، فكثرة الألفاظ تفيد زيادة المعنى أيضا كما تفيده كثرة الحروف[5].

---

[1] قال ابن القيم:" تحت عنوان: فائدة بديعة: عطف الشيء على نفسه:" القاعدة أن الشيء لا يعطف على نفسه، لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، فهي بمعنى: قام زيد وقام عمرو، والثاني غير الأول، فإذا وجدت قولهم كذبا وميناً، فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني وإن خفي عنك .. فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد." بدائع الفوائد 1/ 197

[2] الحشر الآية: 23

[3] الحديد الآية: 3

[4] الأعلى الآيات: 2 – 4

[5] البرهان في علوم القرآن 2/ 472، و477، ونقله عنه السيوطي أيضا في الإتقان 3/ 211 – 212، ومعترك الأقران 1/ 357. أما كونهما يريان توسطا في مسألة الترادف، فلأنه يفهم من كلامهما في هذا الموضوع، القول بالترادف في القرآن مع تضييق دائرته؛ فكلاهما يرى كما ذكرنا أعلاه جواز العطف بين المترادفين لقصد التأكيد، وساقا في ذلك أمثلة كثيرة من القرآن، ويريان أيضا أن مجموع المترادفين يحصل معنى زائدا على انفراد أحدهما. ويرى الزركشي أن المفردات وزعت بحسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، وأن على المفسر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن؛ لأن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولأجل هذا منع القول بالترادف بين مجموعة من المفردات، ساقها في هذا الموضع. والمتأمل لكلامه في بيان تغاير معاني هذه المفردات يجده لا يختلف عما قال به نفاة الترادف. انظر البرهان في علوم القرآن 4/ 78_87، وانظر في هذا الموضوع أيضا الفروق اللغوية: 203 – 207



ولعل نقطة الالتقاء بين المذهبين في هذه المسألة؛ هي ما عبر عنه الفريق الأول بجواز عطف الشيء على نفسه لاختلاف الصفات، وما عبر عنه الفريق الثاني بجواز العطف بين المفردات المتقاربة في المعنى. لأنهما يرجعان في النهاية إلى جواز العطف بين مفردتين تدلان على شيء واحد، مع تَمَيُّز بعضهما عن بعض في جزئيات تتعلق بالصفات والنِّسَب ونحو ذلك، فهما مترادفتان من حيث النظر إلى دلالتهما على ذات الشيء الواحد، ومختلفتان من حيث النظر إلى دلالتهما على الصفات والنِّسَب المتنوعة[1].

وهذا القدر المشترك بين المذهبين هو الذي يعنينا فيما نحن بصدد بيانه؛ وذلك أنه يجيء في مواضع من القرآن الكريم عطف الشيء على ما يقرب منه في المعنى مع امتياز بعضهما عن بعض بما ذكرنا، والصواب في مثل هذه الحال أن يستعين المفسِّر على بيان أحدهما بالآخر، لاتفاقهما في الدلالة على ذلك القدر المشترك من المعنى، ولكن مع استحضار زوائد المعنى المتعلقة بالصفات ونحوها، حتى لا يجعلهما متفقين تمام الاتفاق[2].

ولذلك فإن ما أنكره نفاة الترادف على القائلين به في خصوص هذه المسألة، إنما تعلَّق بما يوهم باتفاق اللفظين معناً واختلافهما لفظاً، وأن العطف إنما حصل لاختلاف اللفظين فحسب، وجعلوا منه قول الشاعر: وألفى قولها كذباً ومَيْناً[3]، وقول الآخر: وهِندٌ أتى من دونها النَّأيُ والْبُعْدُ[1].

---

[1] يرى ابن تيمية أن اللفظين قد يكونا متفقين في الدلالة على معنى ويمتاز أحدهما بزيادة، كما إذا قيل في السيف: إنه سيف وصارم ومهند، فلفظ السيف يدل عليه مجردا، ولفظ الصارم يدل على صفة الصرم عليه، ولفظ المهند يدل على النسبة إلى الهند. مجموع الفتاوى 20/ 423 – 424. ويرى ابن القيم أن الأسماء الدالة على مسمى واحد نوعان:

أحدهما: ما دل عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع مترادف ترادفا محضا؛ كالحنطة والقمح والبر، والاسم والكنية واللقب، إذا خلا من المدح والذم وجيء به لمجرد التعريف.

والثاني: ما دل على ذات واحدة باعتبار تباين صفاتها؛ كأسمائه تعالى، وأسماء كلامه، وأسماء نبيه، وأسماء اليوم الآخر، وهذا النوع مترادف بالنسبة إلى الذات، متباين بالنسبة إلى الصفات. روضة المحبين: 54، وانظر نحوه في مجموع الفتاوى 20/ 424

[2] قال ابن تيمية: "من الأسماء المختلفة الألفاظ ما يكون معناه واحداً؛ كالجلوس والقعود. وهي المترادفة.، ومنها ما تتباين معانيها؛ كلفظ السماء والأرض، ومنها ما يتفق من وجه ويختلف من وجه؛ كلفظ الصارم والمهند، وهذا قسم ثالث، فإنه ليس معنى هذا مبايناً لمعنى ذاك كمباينة السماء والأرض، ولا هو مماثلا لها كمماثلة لفظ الجلوس للقعود."مجموع الفتاوى 20/ 427

[3] وهو قول عدي بن زيد، وتتمة البيت على الشكل التالي:



وزعموا أن مثل ذلك يوجد في القرآن أيضا، وجعلوا منه قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[2] ونحوه. ولذلك أنكر ابن تيمية أن يجيء مثل ذلك في القرآن الكريم، أو في كلام فصيح، وعندما بيَّن الفرق بين النأي والبعد في كلام المخالفين، اتضح أنهم لا ينكرون ذلك القدر المشترك من المعنى، وإنما ينكرون الاتفاق التام[3].

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نستفيد من هذا النوع من المفردات أيضا في تفسير بعضها ببعض في حدود القدر المشترك بينها من المعنى، كما هو الحال في قوله تعالى: {عَبَسَ وَبَسَرَ (22)}[4] ، فقد فسر كثير من المفسرين " بَسَرَ " بالعبوس وكلوح الوجه وتقطيبه وتكريهه[5] ، وهذا هو القدر المشترك من المعنى بين المفردتين، وتميزت مفردة "بَسَرَ"بالاستعجال بإظهاره قبل أوانه، وفي غير وقته[6] ، وبالزيادة فيه[7].

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}[8]، وقد فسر أيضا معظم المفسرين " البث " بالهم، والحزن، وهو القدر المشترك من المعنى بين اللفظين، وزاد "البث " بكونه خاصا بما عظم وثقل على صاحبه، حتى عجز عن كتمه فبثه بين الناس[1].

فَقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ ... وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْناً

وروي بألفاظ أخرى أيضا. انظر طبقات فحول الشعراء 1/ 75 – 76، والمستقصى في أمثال العرب 1/ 243، ولسان العرب مادة: مين، 13/ 425

[1] وهو قول الحطيئة، وتتمته قوله:

أَلاَ حبَّذَا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النَّايُ والْبُعْدُ

[2] من قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة الآية: 48

[3] قال ابن تيمية:" .. فقال المخالفون لهم: النأي أعم من البعد، فإن النأي كلما قل بعده أو كثر، كأنه مثل المفارقة، والبعد إنما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته .. "مجموع الفتاوى 7/ 177 – 178

[4] المدثر الآية: 22

[5] انظر مثلا: أنوار التنزيل 5/ 414، وتفسير الجلالين 1/ 776، وتفسير غريب القرآن: 496، و500، وتفسير القرآن العظيم 4/ 444، والعمدة في غريب القرآن: 323، و325، وغريب القرآن: 127، وفتح القدير 5/ 327، ومعالم التنزيل 4/ 416، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن: 43، و332، والوجيز 2/ 1149 .. وغيرها

[6] معجم مفردات ألفاظ القرآن: 43

[7] تفسير الجلالين 1/ 776

[8] يوسف الآية: 86



وقوله تعالى: {فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106)}[2]، وقد أوضح كثير من المفسرين أيضا أحدهما بالآخر، أو بما يحصّل فيهما معنى واحدا[3]، وذلك لاشتراكهما في الدلالة على مطلق الاستواء، ولكن اختلف بعضهما عن بعض فيما يتعلق بصفات هذا الاستواء، فدل الأول على الانبساط، واختص الثاني بكونه أملس لا أثر فيه لنبت ولا غيره.

وقوله تعالى: {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107)}[4] ، وقد فسر الزركشي والخليل، وغيرهما " الأَمَت " ب " العِوَج "[5]، والقدر المشترك بينهما من المعنى هو الدلالة على مطلق الاعوجاج، ولكن تميَّز كل منهما عن الآخر بما يتعلق بأوصاف هذا الاعوجاج، فدل الأمت على ما غلظ من الأرض وارتفع، واختص العِوَج بما رَقَّ منها وانخفض، ومُثل للأول بالروابي، وللثاني بالوديان[6].

وعلى هذا النحو يمكننا أن نفهم ما شاكلها من المفردات التي جاءت في القرآن معطوفة بعضها على بعض.

وبما تقدم جملة تعلم أن القول بالفروق في القرآن الكريم لا يحول دون الاستفادة من هذا الجانب أيضا من تفسير القرآن بالقرآن، الذي استشكلناه سابقا على سبيل الفرض والاحتمال، من أجل بيانه وتوضيحه.

ثم إن تفسير القرآن بالقرآن كما نبهنا من قبل هو أوسع مما ذكرنا في هذه المسألة، التي تعتبر جزئية ضيقة جدا من مباحث هذا اللون من التفسير.

---

[1] انظر مثلا: تفسير غريب القرآن:222، والوجيز 1/ 557، ومعالم التنزيل 2/ 444، وأنوار التنزيل 3/ 305، وتفسير القرآن العظيم 2/ 489، وتفسير الجلالين 1/ 316، وفتح القدير 49/3

[2] طه الآية: 106

[3] في تفسير غريب القرآن: 282:"القاع من الأرض: المستوي الذي يعلوه الماء، والصفصف: المستوي."، وفي غريب القرآن: 377 ومجاز القرآن 1/ 29:"قاعا صفصفا، أي مستويا أملس."، وفي الوجيز 2/ 705: " قاعا صفصفا: مكانا مستويا "، وفي تفسير القرآن العظيم 3/ 166:" القاع هو المستوى من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى ذلك."

[4] طه الآية: 107

[5] البرهان 2/ 473، ويفهم هذا أيضا من كلام أبي بكر السجستاني الذي جمع بين معنييهما في تفسيره ل" أمتا " قال:" ارتفاعا وهبوطا ". غريب القرآن: 69

[6] الوجيز 2/ 705، ومعالم التنزيل 3/ 213، وأنوار التنزيل 4/ 70، وتفسير القرآن العظيم 3/ 166، وتفسير الجلالين 1/ 416، ، وفتح القدير 3/ 388



2. مسألة الوضوح والخفاء في تفسير القرآن بالقرآن

القرآن الكريم كما ذكر العلماء منه ما هو واضح بنفسه، لا يحتاج إلى بيان منه ولا من غيره، لوضوح لفظه وعبارته، ومنه ما يحتاج إلى بيان، وبيانه إما في مواضع منه، أو في غيره من المصادر المعتبرة[1].

والذي يعنينا في هذا المبحث هو بيانه الذي يوجد في مواضع منه، فهو الآخر منه ما هو واضح، بيِّن العلاقة بمحل الإشكال المحتاج إلى التفسير، ومنه ما هو خفي، يحتاج إلى جهد وتأمل وتفكير.

أما الواضح منهما، فيشبه أن يكون القرآن بعينه قد دَلَّ عليه، من مثل ما يرد عقب مبيَّنه؛ كقوله تعالى: {اللَّهُ الصَّمَدُ (2)}[2]، قال محمد بن كعب القرظي:" تفسيره: { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)}[3]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) ﴾[4] ، قال أبو العالية:" تفسيره: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)}[5]، وقال ثعلب: سألني محمد بن طاهر: ما الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله تعالى."[6]

وقال أبو حيان في قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81)}[7]:" هذا بيان لقوله: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ}[8]. "[9]، وغيرها من الأمثلة.

ومنه أيضا ما يحيل عليه القرآن في مواضع منه؛ كقوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ}[1] ففي هذه الآية أخبرنا الله تعالى أنه قد حرم على اليهود أموراً لم يبينها هنا، ولكنه أحال

---

[1] أثار الزركشي رحمه الله جانبا من هذه المسألة، في فصل بعنوان: تقسيم القرآن إلى ما هو بين بنفسه وإلى ما ليس ببين في نفسه فيحتاج إلى بيان. البرهان في علوم القرآن 2/ 183

[2] الإخلاص الآية: 2

[3] الإخلاص الآيتان: 3 – 4

[4] المعارج الآية: 19

[5] المعارج الآيتان: 20 – 21

[6] ذكرهما الزركشي ضمن أمثلة البيان الواضح في القرآن. البرهان 2/ 186

[7] الأعراف الآية: 81

[8] من قوله تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80)} الأعراف الآية:80

[9] البحر المحيط 4/ 337



على موضع بيانها في سورة أخرى، وهو قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146)[2]}[3]. وقد سبق أن تعرضنا لهذا الجانب وأمثلته.

ومنه أيضا ما دلَّت تنزُّلات القرآن على موضعه، ومن ذلك: ما رواه أنس رضي الله عنه، عندما نزل تحريم الخمر: (... قال بعض القوم: قُتِل قوم وهْي في بطونهم، قال: فأنزل الله: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا[4]} [5].

وما رواه البراء رضي الله تعالى عنه لما تحولت القبلة، قال: (... وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّل قِبَلَ البيت رجال قُتِلوا لم نَدْر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) [6]} [7].

ففي هذين المثالين دل ترتيب النزول على موضع البيان من القرآن؛ حيث نزل النصان بأحكام تساءل الناس في شأن من تعلقت بهم من المسلمين الأوائل، ثم نزل بعدها البيان من الله تعالى، دالاًّ الجميع على موضع التفسير من القرآن.

ومنه أيضا ما دل التكرار عليه؛ كأن ترد القصة بلفظ غريب، وتقع في موضع آخر بلفظ أوضح منه يبيِّنه، أو تجيء في موضع مجملة، وفي موضع آخر مفصلة، توضح ما اختصر في الموضع الأول، ونحو ذلك.

فمن الأول: بيان قوله تعالى: {فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}[8] بقوله تعالى: {فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}[1]، وبيان قوله تعالى: {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}[2] بقوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ}[3]، وبيان قوله تعالى: {حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}[4] بقوله تعالى: {حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33)} [5]، ونحو ذلك .

[1] النحل الآية:118
[2] الأنعام الآية:146
[3] تفسير القرآن العظيم 2/ 590، وأضواء البيان 3/ 383
[4] المائدة الآية: 93
[5] صحيح البخاري، كتاب التفسير . سورة المائدة . الباب:11، ح: 4620
[6] البقرة الآية: 143
[7] صحيح البخاري، كتاب التفسير . سورة البقرة . الباب:12، ح: 4486
[8] الأعراف الآية: 160



ومن الثاني: قوله تعالى في قصة إبراهيم: {وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52)}[6]، فجاء هذا المقطع موجزا مختصرا، وكأن أول ما واجه به إبراهيم عليه السلام ضيوفه هو الإنكار وإبداء الخوف، وجاء في موضع آخر من سورة هود بَسطٌ لما اختصر في هذا الموضع؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70)}[7]، وبناء على هذين الموضعين[8]، يمكن أن نقدر هذا المقطع من القصة على الصيغة الآتية: فقالوا سلاما، قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم، وأوجس منهم خيفة، قال: إنا منكم وجلون، قالوا: لا تخف، إنا أرسلنا إلى قوم لوط.

وقوله تعالى: {قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ}[9]، فجاء جواب الله تعالى مختصراً في هذا الموضع، وجاء له زيادة بسط في سورتي الحجر وص~: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}[10]

---

[1] البقرة الآية: 60

[2] من قوله تعالى: {كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11)} آل عمران الآية: 11، وقوله تعالى: {كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)} الأنفال الآية: 52

[3] من قوله تعالى: {كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)} الأنفال الآية: 54

[4] هود الآية: 82، والحجر الآية: 74، وهما في القصة السابقة.

[5] الذاريات الآية: 33، وهي في القصة السابقة أيضا.

[6] الحجر الآيتان: 51 - 52

[7] هود الآيتان: 69 - 70

[8] اكتفينا بهذين الموضعين للتمثيل هنا، وفيه فوائد أخرى في تتمة السياقين وفي مواضع أخرى من القرآن. عرضنا لها بتفصيل في أطرحة تفسير القرآن بالقرآن دراسة تاريخية ونظرية.

[9] الأعراف الآيتان: 14، 15

[10] الحجر الآيات: 36 - 38،وص~ الآيات: 79 - 81



وعلى العموم فكل قصة، أو قضية، أو مثل، أو خبر، تكرر وروده في القرآن إلا كان في كل موضع ورد فيه جديد من المعنى يعين على فهم المواضع الأخرى، ويساعد على استكمال ما لم يذكر من أجزائه، فالتكرير إذاً مساعد يدل على مواضع البيان من القرآن ..

ومنه أيضا ما دَلَّت القراءة الأخرى عليه؛ كأن يرد اللفظ في قراءة، ويجيء له بيان في قراءة أخرى بلفظ أوضح منه، ومثاله بيان قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ}[1]، بقراءة متواترة أخرى: {وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطَّهَّرْنَ}[2].

وهناك وجوه أخرى دلت القراءة على بيانها، تتعلق بالمفردات والتركيب بسطناها في أطروحة تفسير القرآن بالقرآن.

وهذا القسم كما رأيت من شدة وضوحه والإيحاء به يشبه أن يكون من تفسير القرآن للقرآن، ولكن من حيث النظر إليه من جهة جهد المفسِّر واجتهاده فهو من تفسير القرآن بالقرآن. وهو أولى بالقبول لوضوح مآخذه وقوة حجته، وهو كثير في استدلال المفسرين.

وأما القسم الثاني وهو الخفي منهما، فهو على خلاف سابقه، يحتاج إلى جهد كبير لاكتشافه، ومرجع ذلك إلى أسلوب القرآن الكريم؛ المتميز بإيجاز لفظه ووفرة معانيه، وتشابه آيه، ودقة روابطه ومناسباته وأسراره، ولذلك يخفى على الناظر فيه أحيانا تعيين المعنى المقصود من بين معانيه المحتملة، أو بيان مرجع الضمير، أو تقدير المحذوف من الجملة، أو تحديد مواضع الوقف والابتداء، أو اكتشاف أسرار التقديم والتأخير، أو استظهار وجوه التناسب بين بعض الآيات، مع وجود ما يدل على ذلك كله، ولكن خفي إما لتعدد الاحتمالات، وإما لتشابه الآيات، وإما لدقته فلم تمتد العقول إليه.

وهذا القسم كسائر أقسام الاستدلال يحتمل الصواب والخطأ، ولا يخفى صوابه من خطئه على المتمرس بأصول التفسير وقواعده. ولا ينقص احتمال الخطإ فيه من قيمته، لأنه احتمال عام في كل اجتهاد، سواء استند إلى القرآن أو السنة أو اللغة، أو غير ذلك من الأصول، والله تعالى لم يتعبدنا بغير ما رجح في الذهن وغلب على الظن، وحسب المفسر أنه نهج أوضح سبيل، وتوسل إلى الفهم بأقوى دليل.

---

[1] البقرة الآية: 222، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص. إتحاف فضلاء البشر 438/1، والجامع لأحكام القرآن 3/ 88، والكشف عن وجوه القراءات 1/ 293 - 294

[2] وهي قراءة حمزة والكسائي و عاصم في رواية أبي بكر. المصادر السابقة، بصفحاتها المذكورة.



3. خامسا: الاختلاف في تفسير القرآن بالقرآن، وأحسنية هذا النوع من التفسير

وهذه مسألة أخرى قد تعرض لنا في طريق ترجيح هذا النوع من التفسير، وذلك أن تفسير القرآن بالقرآن هو الآخر لم يسلم من الاختلاف، حتى إننا قد نجد في المسألة الواحدة أكثر من رأي، وكلها يُستَدل لها بالقرآن. فكيف يصح مع وجود مثل هذا أن يقال: إن أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ؟ وإذا وقفنا على مثل هذا الاختلاف، فأي التفاسير نعتبره من تفسير القرآن، وأولى بالحسن المذكور ؟

والجواب عن ذلك:

أن الاختلاف في تفسير القرآن بالقرآن ليس له صورة واحدة حتى يحكم على جميعه بالذم، بل له صور متعددة، لكل صورة حكم يناسبها.

فمنها ما يكون بسبب احتمال الآية لمعان متعددة يشهد لها جميعا شاهد من القرآن أو أكثر.

ومنها ما يكون بسبب احتمال الآية لمعان متعددة يشهد لها جميعا شاهد من القرآن أو أكثر، إلا أن بعضها يمتاز بدليل آخر يرجحه على بقية الاحتمالات الأخرى.

ومنها ما يكون بسبب تعدد القراءات، وكل معنى تشهد له قراءة متواترة.

ومنها ما يكون بسبب الخطأ في التماس الدليل من القرآن.

أما الصورة الأولى؛ وهي ما يكون الخلاف فيها بسبب احتمال الآية لمعان متعددة، يشهد لها جميعا شاهد من القرآن، فنحو ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)﴾[1]

قال محمد الأمين الشنقيطي:"واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك[2]: أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق، ويشهد له قرآن، فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية. ومن ذلك هذه الآية الكريمة، لأن المراد بالأرض في قوله هنا: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)}[3] فيه للعلماء وجهان:

---

[1] الأنبياء الآية: 105

[2] ذكر ذلك في معرض التعريف بوجوه بيان القرآن بالقرآن التي ضمنها في تفسيره، انظر أضواء البيان 1/ 24

[3] الأنبياء الآية: 105



الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين. وهذا القول يدل له قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)}[1]، وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة "مريم".

الثاني: أن المراد بالأرض: أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا، ويدل لهذا قوله تعالى: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)}[2]، وقوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا}[3] الآية، وقوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)}[4]، وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}[5] الآية، وقوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ}[6]

إلى غير ذلك من الآيات."

فهذه الصورة من الخلاف ليست مذمومة، لأن هذه الآراء التي قال بها المفسرون تحتملها الآية المفسَّرة جميعا، ويشهد لها أدلة قرآنية واضحة، ولذلك اعتبر المفسرون هذه الحالة من الحالات التي يمتنع فيها الترجيح، وأن الصواب فيها القول بجميع الآراء ما دام يشهد لها جميعا شاهد من القرآن.

وأما الصورة الثانية: وهي ما يكون فيها الخلاف بسبب احتمال الآية لمعان متعددة يشهد لها جميعا شاهد من القرآن أو أكثر، إلا أن بعضها يمتاز بدليل آخر يرجحه على بقية الاحتمالات الأخرى؛ فنحو ما

---

[1] الزمر الآية: 74

[2] الأحزاب الآية: 27

[3] من قوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)} الأعراف الآية: 137

[4] الأعراف الآية: 128

[5] من قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)} النور الآية: 55

[6] من قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14)} إبراهيم الآيتان: 13-14



جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71)}[1]، فقد اختلف في المراد بلفظ " الإمام ".

فقال بعض العلماء: المراد به هنا هو كتاب أعمالهم. ويدل له قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)}[2]، وقوله: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28)}[3]، وقوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}[4] الآية، وقوله: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13)}[5]، واختار ابن كثير هذا الرأي ونسبه لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن[6].

وقال آخرون: المراد به نبيهم. ويدل له قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)}[7]، وقوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41)}[8]، وقوله: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ}[9]، وقوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)}[10].

وقال آخرون: المراد به كتابهم الذي أنزل على نبيهم[11].

---

[1] الإسراء الآية: 71

[2] يس الآية: 12

[3] الجاثية الآية: 28

[4] الكهف الآية: 49

[5] الإسراء الآية: 13

[6] تفسير القرآن العظيم 3/ 53

[7] يونس الآية: 47

[8] النساء الآية: 41

[9] النحل الآية: 89

[10] الزمر الآية: 69

[11] ذكر ابن كثير أن ابن جرير اختار هذا الرأي، ونقله عنه محمد الأمين الشنقيطي أيضا، والذي يوجد في جامع البيان خلاف ذلك؛ بل فيه اختيار الرأي الموالي. انظر جامع البيان 15/ 127



وأما الصورة الثالثة: وهي ما يكون الخلاف فيها بسبب تعدد القراءات، وكل معنى تشهد له قراءة غير الأخرى؛ فنحو ما جاء في لفظ " سكرت " من قوله تعالى: {لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}[1]، فقد اختلفت فيه أقوال السلف من المقرئين والمفسرين، والسبب في ذلك تعدد القراءات:

فمن قرأها: {سُكِّرَتْ} بالتشديد، قال: إنها على معنى: غُشِّيت، وغُطِّيت، وأن ذلك مأخوذ من السُّكر، ومعناه: غشى أبصارنا السكر فلا نبصر.

ومن قرأها: {سُكِرَتْ} بالتخفيف، قال: إنها على معنى: حُبست، من سُكُور الريح إذا سَكنت، وركدت.

أو بمعنى: سُدَّت؛ أي مُنعت من النظر، كما يُسْكَر الماء، فيُمنع من الجري بحبسه في مكان بالسَّكْر الذي يسكر به.

أو بمعنى: أُخذت وسُحرت[2].

ونحو هذا مما جاء في مواضع من القرآن على قراءات متعددة، فُسِّرت كل قراءة بما يختلف عن معنى أختها؛ كما هو الحال في قراءتي: {فَأَزَلَّهُمَا}[3]: بمعنى استزلهما، وأوقعهما في الزَّلَّة، و {فَأَزَالَهُمَا}: بمعنى نحَّاهما[4].

وقراءتي: {نُنْشِرُهَا}[5]: بمعنى نحييها، و {نُنشِزُهَا}: بمعنى نرفعها[6]. وغيرها من الأمثلة.

---

[1] من قوله تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)} الحجر الآيتان: 14 - 15. قرأه بالتخفيف ابن كثير، وشدده الباقون. الكشف عن وجوه القراءات 2/ 30

[2] انظر ذلك بتفصيل في جامع البيان 14/ 11 - 13

[3] من قوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} البقرة الآية: 36. قرأه حمزة بالألف مخففة، وقرأه الباقون بغير ألف مشدداً.

[4] حجة القراءات: 94، والكشف عن وجوه القراءات 1/ 235 - 236

[5] من قوله تعالى: {فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .. } البقرة الآية: 259. قرأه الكوفيون وابن عامر بالزاي، وقرأه الباقون بالراء.

[6] الكشف عن وجوه القراءات 1/ 310 - 311



وهذه الصورة أيضا شبيهة بالصورتين السابقتين؛ لأن هذه الآراء التي قيلت في بيان معاني هذه الآيات صحيحة؛ لأن القراءات التي جاءت بها تحتملها، بل ويشهد لها فوق ذلك شواهد أخرى من القرآن، وأنت إذا رجعت إلى كتب توجيه القراءات، تجد أن كل قراءة قد استدل لها أهلها بما يعللها ويبينها من القرآن، وهذا لا يعد خلافا في التفسير، لأن تعدد القراءات المتواترة بمنزلة تعدد الآيات، وهي لا تعدو إما أن تكون مبيِّنة لبعضها بعضا، أو مكملة لها، لأن المعنى المقصود ما دلت عليه الآية بقراءاتها المتواترة، وهذا من وجوه إعجاز القرآن بالإيجاز، حيث يدل على معان متعددة مقصودة بكلمة واحدة، قرئت بصور متنوعة.

وأما الصورة الرابعة: وهي ما يكون الخلاف فيها بسبب الخطأ في التماس الدليل من القرآن؛ فنحو ما جاء عموما في تأويلات بعض الفرق الإسلامية، كالمعتزلة والشيعة والخوارج ونحوها، وما جاء أيضا في تفسيرات بعض العلماء الأجلاء، بسبب الأخذ ببعض النصوص المرجوحة علاقتها بالموضع المفسَّر، والسهو عما هو أرجح في ذلك.

ومن أمثلته:

قول القاضي عبد الجبار:" وربما قالوا في قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا}[1] إن ذلك كالدلالة على أنه يزيغ قلوب البعض من العباد، وأنه يصرفهم عن الهدى.

وجوابنا ما تقدم من أن السائل قد يسأل ما المعلوم أنه تعالى لا يفعل خلافه، فليس في هذه المسألة دلالة على أنه تعالى يفعل ببعضهم زيغ القلب، كما ليس في قوله: {رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ}[2] دلالة على أنه يحكم بالباطل.

والمراد أنهم سألوا أن يلطف بهم في أن لا يزيغ قلبهم بعد الهدى، لأن المهتدي قد يحتاج إلى الألطاف ليثبت على ذلك، ويزداد هدى إلى هدى."[3].

وقال أيضا في توجيه النصوص التي تفيد نسبة خلق الكفر والضلال وجميع الشرور إلى الله تعالى؛ لأن ذلك في اعتقاده يوقع مضرة بالإنسان، والنص الذي استدل به ينفي أن يكون الله تعالى شائيا لذلك:

[1] آل عمران الآية: 8
[2] الأنبياء الآية: 112
[3] تنْزيه القرآن: 59



قال:"وقوله عز وجل: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ}[1] يدل على أنه لم يشأ إعناتهم ...

والإعنات: هو ما يؤدي إلى المضرة على وجه مخصوص، فإذا كان عندهم أنه تعالى قد أراد جميع ما يقع من ذلك فكيف يصح أن يكون شائيا له؟ وهذا يدل على نفي المشيئة من كل وجه، لأن هذا حق الكلام إذا دل على النفي."[2].

وهذا التفسير منه على مذهب المعتزلة في القول بأن الهدى والضلال من فعل العبد، لا يخلقه الله تعالى في قلبه، واستدل له في الموضع الأول بآية من القرآن، حمل الآية المفسَّرة على أسلوبها، وفي الموضع الثاني بآية ليست نصا في الموضوع. وهو تفسير يخالف ما جاءت به آيات أخرى كثيرة تدل على خلاف رأيهم.

وأما ما يرجع إلى أخطاء بعض العلماء، فنحو ما ذكر ابن القيم من رأي الكسائي رحمهما الله في تفسير قوله تعالى: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41)}[3]

قال:" وقول ثالث: وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد[4]، نظير قوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)}[5]، كما يقال: طريقك عليَّ، وممرك عليَّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا مُعجز. والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله. فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)}[6]، فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم. فقرر الله عز وجل ذلك أتم

---

[1] البقرة الآية: 220

[2] متشابه القرآن: 122 – 123

[3] الحجر الآية: 41

[4] وهذا المعنى ذكره الطبري أيضا موجها به كلام السلف، قال: " {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41)} الحجر الآية: 41: بمعنى هذا طريق إلي مستقيم، فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلي، فأجازي كلا بأعمالهم، كما قال الله تعالى ذكره: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)} الفجر الآية: 14، وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علي، وأنا على طريقك .. " جامع البيان 14/ 33. ثم ذكر من كلام السلف ما اعتقد أنه على نفس المعنى، فذكر قول مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وقول الحسن أيضا: {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41)} يقول: إلي مستقيم. المصدر السابق 14/ 33 – 34. وهو توجيه مرجوح بالمقارنة مع توجيه ابن القيم المذكور سابقاً. وكذلك صنع القرطبي حيث نسب هذا الرأي لمجاهد والكسائي، وابن كثير أيضا حيث نسبه لمجاهد والحسن وقتادة، ولعلهما اكتفيا بما نقلاه عن الطبري. انظر الجامع لأحكام القرآن 10/ 28، وتفسير القرآن العظيم 2/ 552.

[5] الفجر الآية: 14

[6] الحجر الآيتان: 39 – 40



التقرير. وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم. فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط عليَّ. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحَوْم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله. فلا يصل عدو الله إلى أهله ..

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)}[1]، فلا يخفى الفرق بينهما سياقا ودلالة. فتأمله، ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليَّ، لمن لا يسلكه. وليست سبيل المهدَّد مستقيمة. فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله. فلا يستقيم هذا القول البتة."[2] . ونحو ذلك من الأمثلة التي تصادفها في ترجيحات المفسرين.

وأما هذه الصورة فالخلاف فيها كما رأيت راجع إلى خطأ المفسر، وعدم توفقه في التماس الدليل المناسب، وعجزه عن الاهتداء إلى موضع البيان الموجود في القرآن، ولذلك فاجتهاده مرجوح رغم استدلاله بالقرآن، لأنه لا يمثل بيان القرآن على الراجح من الظن، لما ظهر من الأدلة القرآنية الأخرى – وقد تكون من السنة أحياناً، أو من إجماع الأمة، أو من فهم الحجة من السلف – الواضحة في علاقتها بالموضع المفسَّر، والمخالفة لاجتهاده، والمرجحة لغيره من الآراء.

وبما تقدم يتضح أن صور الخلاف في تفسير القرآن بالقرآن ليست كلها سواء، وأن منها ما يرجع إلى احتمالات النص، ومعاني قراءاته، ومنها ما يرجع إلى اجتهاد المفسر. وقد أوضحنا في كل صورة ما ينبغي العمل به. وبهذا تعلم أن ذلك لا يعكر صفو هذا اللون من البيان والتفسير، ولا ينقص من رجحانه. مع العلم بأن الصورة الأخيرة من الاختلاف هي واردة أيضا في غيره من الألوان التفسيرية الأخرى، ولا يخفى على العلماء تقويم ذلك ومعرفة صوابه من خطئه.

المبحث الثالث: مباحثه ووجوهه

نبه العلماء قديما وحديثا على نصيب من وجوه تفسير القرآن بالقرآن، ومن أشهر كلامهم في ذلك قول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى:" إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان

---

[1] الفجر الآية: 14

[2] بدائع التفسير 1/ 123 – 124



فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر. "[1]. وقد تداوله بعده كثير من العلماء والباحثين قديما وحديثا[2]. وذكر بعض المتأخرين ما يشبه ذلك مع شيء من التفصيل والتمثيل[3].

والملاحظ على هذه الجهود كلها مع ما فيها من خير أنها غير وافية بغرض التعريف بمباحث تفسير القرآن بالقرآن وبيان وجوهه وأمثلته، والسبب في ذلك واضح؛ فأصحابها لم يقصدوا بكلامهم بيان ذلك، وإنما قصدوا التمثيل لهذا الوجه من التفسير بذكر بعض نماذجه الواضحة، وإلا فإن ما ورد في التفاسير وكتب علوم القرآن من وجوه البيان يشهد بأن تفسير القرآن بالقرآن أوسع مما ذكر.

ومن أبرز من كشف عن حقيقة هذا الفن من المحدثين، وتصدى لبيان وجوهه، ورغب في العناية به، الشيخان الجليلان عبد الحميد الفراهي رحمه الله (ت 1349هـ) في كتبه نظام القرآن، ودلائل النظام، والتكميل في أصول التأويل، ومحمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (ت1393هـ) في تفسيره " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن "، قال في مقدمته:" واعلم أن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك كثيرة جداً. وقد أردنا أن نذكر في هذه الترجمة جملا من ذلك ليعلم الناظر كثرة ما تضمنه هذا الكتاب المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن، ويكون على بصيرة في الجملة من فائدته قبل الوقوف على جميع ما فيه."[4] وبعدهما توالت الرسائل العلمية والمؤلفات[5] في خدمة هذا الوجه من التفسير، ولعل أوسعها بيانا ودراسة لمباحثه ووجوهه وأمثلته لحد الآن أطروحة " تفسير القرآن بالقرآن؛ دراسة تاريخية ونظرية " لمحمد قجوي.

وخلاصة ما قررناه فيها بخصوص هذا الجانب؛ أن هذا اللون من التفسير واسع عريض، يستوعب حجماً لا يستهان به من مباحث التفسير ووجوهه؛ كمباحث بيان المفردات، وبيان التركيب، وبيان أساليب

---

[1] مقدمة في أصول التفسير: 39

[2] كابن كثير في مقدمة تفسير القرآن العظيم 7/1، والزركشي في البرهان في علوم القرآن 2/ 175، والسيوطي في الإتقان في علوم القرآن 4/ 174، وخالد عبد الرحمن العك في أصول التفسير وقواعده: 79، و 115، وغيرهم.

[3] كصبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن: 299، ومحمد حسين الذهبي في التفسير والمفسرون 1/ 31، ومحسن عبد الحميد في دراسات في أصول التفسير: 111، وغيرهم.

[4] أضواء البيان 1/ 6-7

[5] منها: قواعد التفسير جمعا ودراسة لخالد بن عثمان السبت 1/ 109 وما بعدها، وقواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي الحربي 1/ 71، و299-327، وفصول في أصول التفسير لمساعد الطيار، وغيرهم.



القرآن، وبيان مواضيعه المتنوعة بحسب تنوع مسائله وأقضيته[1]. ولما تطورت العلوم الإسلامية وتشعبت، واستقل بعضها عن بعض، تميزت هذه المباحث بعضها عن بعض، وأصبح لكل منها مظان يرجع إليها في طلبها، ككتب متون الحديث والآثار، وكتب اللغة وعلومها، وكتب الفقه وأصوله، وفي كل منها يوجد الاستدلال بالقرآن في بيان جانب من معانيه أو أحكامه. وعندما اشتغل المفسرون بتفسير القرآن تأثر كل منهم بصناعته، واستمد من مصادرها، وغلب ذلك على تفسيره، فكانت تفاسير نقلية، وتفاسير لغوية، وتفاسير فقهية، وتفاسير عقلية، وفي كل منها يوجد تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الرابع: ضوابطه

لتفسير القرآن بالقرآن ضوابط إذا راعاها المفسر وافق الصواب وأصاب المعنى بإذن الله تعالى، من أبرزها العناصر الآتية:

1. مراعاة الفروق بين مفردات القرآن الكريم

وذلك على النحو الذي قدمناه في مسألة الفروق وصحة تفسير القرآن بالقرآن، وملخصه أن تفسير المفردة بمفردة أخرى من القرآن يقتضي استحضار سياقي هاتين المفردتين أو قراءتيهما، لاستدراك الجزئيات التي تُمَيِّز هاتين المفردتين بعضهما عن بعض، ليكتمل المعنى في أذهاننا، لأن المعنى المقصود في مثل هذه الحالات إنما يحصَّل بالجمع بين دلالات هذين الموضعين؛ أي الجمع بين السياقين أو القراءاتين بحسب ورود المفردتين. وقد ذكرنا أمثلته فيما تقدم.

كما أن تفسير المفردات المعطوفة بعضها على بعض يقتضي استحضار زوائد المعنى المتعلقة بالصفات ونحوها، حتى لا نجعل هذه المفردات المتقاربة في المعنى متفقة تمام الاتفاق. وقد تقدمت أمثلته أيضا.

2. مراعاة سعة دلالات القرآن

[1] وقد فصلنا هذه المباحث وبينا ما فيها من وجوه تفسير القرآن بالقرآن مع الأمثلة المناسبة.



من وجوه إعجاز القرآن الكريم سعة دلالات مفرداته وتراكيبه وقراءاته، وعلى المفسر أن يراعي هذه الخصيصة في التفسير والبيان، ولا يقصره على معنى من المعاني المحتملة بشاهد من القرآن بدون مراعاة شواهد المعنى الآخر، فقد تكون هي الأخرى شواهدَ معتبرة.

ومن جملة ذلك أن تحتمل الآية معاني متعددة، يشهد لها جميعا شاهد من القرآن، وقد تقدم ذكر كلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في هذه المسألة، وأن الصواب ذكر الجميع بشواهده.

وقد تحتمل الآية أكثر من معنى بسبب تعدد القراءات، فلا يؤخذ ببعضها دون بعض، بل المعنى مجموع ما دلت عليه الآية بقراءاتها. وقد قدمنا أمثلته سابقا.

3. عدم التعارض مع نصوص السنة

إذ لا يمكن أن يصح تفسير القرآن بالقرآن إذا ورد مخالفا لنصوص السنة ودلالاتها، لما هو معلوم من أن السنة الصحيحة لا تتعارض مع القرآن الكريم ودلالاته، فإذا حصل ذلك علم أن الاستدلال بالقرآن خاطئ لأنه لم يوافق الدليل المناسب، ومن أمثلته احتجاج المعتزلة بقوله تعالى:﴿ لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ .. ﴾ الأنعام الآية: 103 على نفي رؤية الله تعالى في قوله:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)﴾ القيامة، وهو استدلال مخالف للأخبار الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

4. عدم التعارض مع إجماع الأمة

فمعارضة إجماعهم دليل على مخالفة الصواب والغفلة عن الدليل المناسب، ومن أمثلته:

تفسير أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِي لقوله تعالى:﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا(78)﴾ بقوله تعالى:﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا(79) ﴾ النساء:".. فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَاذَا فَصَلَ تَعَالَى بَيْنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَأَضَافَ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ الطَّاعَةُ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ السَّيِّئَةِ وَكِلَاهُمَا فِعْلُ الْعَبْدِ عِنْدَكُمْ ؟



قُلْنَا: لِأَنَّ الْحَسَنَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْهَا بِتَسْهِيلِهِ تَعَالَى وَأَلْطَافِهِ فَصَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا السَّيِّئَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَهِيَ غَيْرُ مُضَافَةٍ إِلَى اللَّه تَعَالَى لَا بِأَنَّهُ تَعَالَى فَعَلَهَا وَلَا بِأَنَّهُ أَرَادَهَا، وَلَا بِأَنَّهُ أَمَرَ بِهَا، وَلَا بِأَنَّهُ رَغِبَ فِيهَا، فَلَا جَرَمَ انْقَطَعَتْ إِضَافَةُ هَذِهِ السَّيِّئَةِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ إِلَى اللَّه تَعَالَى.

قال الإمام الرازي محتجا عليه:" ثُمَّ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ الْكُفْرَ أَيْضًا مِنَ اللَّه، قُلْنَا فِيهِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ قَالَ: الْإِيمَانُ مِنَ اللَّه قَالَ: الْكُفْرُ مِنَ اللَّه، فَالْقَوْلُ بِأَنَّ أَحَدَهُمَا مِنَ اللَّه دُونَ الْآخَرِ مخالف لإجماع الْأُمَّةِ." مفاتيح الغيب10/ 147- 148، وهذا كثير في تأويلات الفرق الإسلامية.

المبحث الخامس: مصادره

ونريد في هذا المبحث أن نلفت النظر إلى العناصر الآتية:

أولا: إن العناية بالتصنيف في فروع هذا الفن بدأت مبكرةً جداً، حتى إن ما وصلنا من مصنفاته يعتبر من أقدم المصنفات في التفسير كما سنرى.

ثانيا: إن وجوه العناية به قد تنوعت بتنوع هذه المصادر، التي اهتم كل منها بجانب من جوانبه.

ثالثا: الدلالة على مظانه المعتمدة، التي يُرجَع إليها عند الحاجة، وبيان ما يوجد في كل منها من مباحثه.

رابعا: أهمية هذا التراث العظيم، الذي تَجمَّع لدينا من تجارب الأولين والآخرين في هذا الوجه من التفسير، والذي مازال يحتاج إلى جهود أخرى متضافرة، يختص كل منها بجانب من جوانبه، جمعاً، وتوثيقاً، وتحقيقاً، ودراسةً، واستنباطاً، وتقعيداً، حتى تعم الفائدة به.

وقد صنفتُ هذه المؤلفات حسب تخصصها، مبتدئاً بالتي اهتمت منها بجانب أو أكثر من جوانب هذا العلم، ومنتهياً بالتي جمعت أكثرها.



أولا: كتب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم

وهي من أقدم مصنفات علوم القرآن والتفسير[1]، انصب الاهتمام فيها على تحقيق وضبط معاني المفردات القرآنية؛ وذلك بتتبعها في جميع سياقاتها، وملاحظة ما تَدل عليه قرينةُ السياق في كل موضع، وتُرجحه من المعاني المحتملة في هذه المفردة، وتصنيف هذه المعاني مع ذكر شواهدها من الآيات، وهو عمل جليل يساعد على الاقتراب من لغة القرآن، وفهم استعمالاته، وتذوق أساليبه، ومعرفة المعهود من معانيه المتداولة فيه. وهو بذلك يساعد على الحد من الخلاف في تفسير كلام الله تعالى، وإيصاد أبواب التأويل والتحريف، وطلب الضعيف من المعاني المرجوحة في وجه المتأولين. وقد كانت مفردات القرآن والمشترك منها بالخصوص منذ القديم وما زالت مثار الاختلاف بين الناظرين في القرآن، وهو من أبرز الأسباب التي حدت بالصحابة والتابعين إلى العناية به، وقد فرعوا عليه مبحثا دقيقا وعلماً نفيساً اصطلحوا عليه بكليات القرآن، بعبارتهم المشهورة:" كل ما في القرآن من كذا فهو بمعنى كذا إلا الموضع الفلاني"، وقد أنضج دليلا قويا من أدلة القرآن في التفسير والترجيح اصطلح عليه المتأخرون بالمعنى المعهود في القرآن، أو المعنى الغالب في القرآن.

ثانيا: كتب مبهمات القرآن

وهي من مظان هذا الفن أيضا، لأن القصد من هذه المصنفات بيان ما ورد مبهماً في الكتاب العزيز من الأعلام والأماكن والأحداث وتفاصيل الأمور، التي استغنى عن ذكرها بالتصريح والتفصيل لأسباب ذكر بعضها العلماء[2]، منها: الاستغناء ببيانه في موضع آخر، وهذا الذي يهمنا في موضوع بيان القرآن بالقرآن. ولما كان علم المبهم مرجعه النقل المحض، ولا مجال فيه للرأي، كان بيانه بالقرآن أصدق بيان على الإطلاق؛ لتواتر نصه، ولعلم صاحبه بما أَبْهَم. وقد عني به الصحابة والتابعون رضي الله عنهم جميعا.

ومما يذكر في حق هذه المصنفات أن البيان فيها تنوع من جهتين:

أولا: من جهة المبَيِّن؛ فقد اعتمدت الاستدلال بالسياق وبالآيات، أحيانا مجتمعين ، وأحيانا أخرى مفترقين.

[1] وقد نسب ابن الجوزي التصنيف فيه إلى عكرمة مولى ابن عباس (ت104 هـ)، وعلي بن أبي طلحة (ت 143هـ). نزهة الأعين: 82

[2] انظرها في البرهان في علوم القرآن 1/ 155، والإتقان 4/ 79



ثانيا: من جهة المبيَّن؛ فقد بينت الأسامي والأفعال، وأصحابها، ونحو ذلك من التفاصيل..

ثالثا: كتب المتشابه

وهي أيضا من مصادر تفسير القرآن بالقرآن، وقد عنيت بتوجيه الآيات المتشابهة التي كانت مثار خلاف كبير بين كثير من الفرق الإسلامية، وتمسك بها أيضاً الطاعنون في العقيدة الإسلامية، مما دعا العلماء من كل الفرق إلى التصنيف في هذا الباب، من أجل بيان صواب مذهبهم، وإبراز الخلل في ما تعلق به خصومهم. ولما كان المتشابه في نصيب كبير منه يمس جانب العقيدة كَثُر الاستدلال بالقرآن في توجيهه، لما في ذلك من حجة وقوة برهان يذعن لها المخالف. وهذا الذي جعل من هذه المصنفات مصدراً مهما في معرفة النماذج الصحيحة والنماذج الخاطئة في تفسير القرآن بالقرآن.

أما الجوانب التي طرقها المصنفون في هذا الباب من تفسير القرآن بالقرآن فكثيرة ومتنوعة؛ منها جانب المفردات، وجانب التركيب، وفي كل منهما وجوه متنوعة من تفسير القرآن بالقرآن، فيها الاستدلال بظاهر النص، والاستدلال بقرينة السياق، والاستدلال بظاهر النص مع السياق، والاستدلال بقرينة السياق مع سياقات أخرى للمفردة أوضح، والاستدلال باستقراء سياقات المفردة المتنازع فيها في القرآن كله، والاستدلال بالمعنى المعهود في القرآن، والاستدلال بالنظير الأوضح في معناه، والاستدلال بآية أخرى أو أكثر، وغير ذلك من وجوه بيان القرآن بالقرآن ..

رابعا: كتب تأويل مشكل القرآن

وهي الأخرى من مصادره الهامة، اعتنت بتوجيه ما أشكل من آيات القرآن الكريم، وتضمنت في جملتها على اختلاف مناهجها في تناول هذا الموضوع، وجوها نفيسة من تفسير القرآن بالقرآن، شملت مباحث المفردات، والتركيب، والموضوع. وتنوع الاستدلال فيها بالقرآن على بيان المشكل من مفرداته وأساليبه، وبيان المقصود بألوان خطاباته، من عموم وخصوص، وفرد وجماعة، ونحو ذلك، وبيان المحذوف من تراكيبه، والاستدلال على توجيه ما يوهم التعارض والتناقض من نصوصه، وبيان وجوه الجمع بينها، والاستفادة من تكاملها في بيان موضوعات القرآن.



خامسا: كتب التناسب في القرآن

وهي من مصادره الهامة أيضا، عنيت بدراسة وجوه التناسب في القرآن الكريم، على تنوعها واختلاف مباحثها. والتناسب في القرآن الكريم جانب بالغ الأهمية من جوانب إعجاز هذا الكتاب العزيز؛ لأن فيه تتجلى الدقة في انتقاء المفردات في معانيها، ومبانيها، وظلالها، وجرسها، وصيغها، من اسم، أو مصدر، أو فعل؛ مضارع، أو ماض، أو نحو ذلك، وفيه تتجلى الحكمة في نظم هذه المفردات المنتقاة، وتتجلى القدرة في ربط الفقرات بعضها ببعض، وتنسيق أجزاء الكلام، وتنْزيل بعضها على بعض، كل ذلك حسب المقصود من الكلام.

والبحث فيه هو بحث في هذه الأسرار، التي قصدت في اختيار هذه المفردات بخصائصها المذكورة، والعلل التي روعيت في انتظامها، واعتلاق أجزاء الكلام بعضها ببعض، وارتباط السور فيما بينها.

وفي ذلك وقوف على وجوه عجيبة من المناسبات، كتناسب السور فيما بينها، وتناسب السورة ووحدتها الموضوعية، وتناسب الآيات فيما بينها، وفي كل ذلك وجوه متنوعة من التناسب والتناسق.

وبالإضافة إلى ذلك هناك مباحث أخرى هامة:

بعضها يتعلق ببيان معاني المفردات، الذي يتحصل من وجوه هذه المناسبات؛ كمناسبة الفواصل، والتعقيبات، والتقابل، ونحو ذلك.

وبعضها يتعلق ببيان معاني التركيب، وبيان المضمر، والمحذوف، ومرجع الضمير، ونحو ذلك، في الجملة القرآنية، الذي تجليه أنواع المناسبات السابقة؛ كمناسبة الفواصل، والتعقيبات، والتقابل، وتناسب الآي عموما، وتناسب السور أحياناً.

وبعضها الآخر يتعلق ببيان موضوعات القرآن أيضاً؛ كبيان موضوع السورة، الذي تهدي إليه جملة من مناسبات السورة. وبيان الموضوع في القرآن، الذي تهدي إليه تلك الآيات المتشابهة عموماً التي تحقق التناسب بين السور.

ولذلك كانت مصنفات هذا العلم غنية جداً بدراسة وجوه تفسير القرآن بالقرآن، شملت في مجموعها وتنوع مباحثها جانب المفردات والتركيب والموضوع.



سادسا: كتب توجيه الآيات المتشابهة

وهذه المصنفات أيضا من أهم مظان تفسير القرآن بالقرآن، توفرت فيها مادة هذا اللون من البيان بقدر كبير. فقد عنيت بتوجيه ما يقع بين الآيات المتشابهة . أي المتماثلة في لفظها . من وجوه الاتفاق والاختلاف؛ إما بالزيادة والنقصان، أو بالتقديم والتأخير، أو بالتعريف والتنكير، أو بالجمع والإفراد، أو بالتفكيك والإدغام، أو بإبدال حرف أو لفظ بغيره، أو باختلاف حركات الإعراب، أو نحو ذلك من وجوه الاختلاف، التي اجتهد العلماء في التماس أسبابها من القرآن الكريم.

قال الكرماني في مقدمة كتابه:"وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها أم لا، ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها ... فإن الأئمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه."[1].

والبحث في هذا الجانب من القرآن الكريم له أهمية خطيرة؛ لأنه بحث في وجه من وجوه إعجاز النظم الكريم، فيه يتجلى التصرف في الكلام، والتفنن في إيراده على أشكال وضروب، يتحقق فيها الوفاء بالمبنى والمعنى معاً، فتتسع دلالات النص القرآني مع كل سياق سياق، ومع كل وجه من وجوه التغيير المذكورة سابقاً، ويتحقق في ذلك مناسبات متعددة؛ كمناسبة السياق، ومناسبة الموضوع، ومناسبة السورة، وغير ذلك من الأسرار التي لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى.

قال الخطيب الإسكافي: " إذا أورد الحكيم تقدست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة ثم أعادها في موضع آخر من القرآن وقد غير فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى، فلا بد من حكمة هناك تُطلب، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم."[2].

---

[1] البرهان في توجيه متشابه القرآن: 20

[2] درة التنْزيل: 20 - 21



ولما كان الموضوع كما ذكرنا، فقد اهتمت هذه المصنفات بالبحث عن هذه الأسرار التي راعاها النظم الكريم في كل سياق، وعن المعاني والمناسبات المقصودة بكل وجه من وجوه التغيير المذكورة سابقاً. وبذلك كانت مليئة بمباحث نفيسة في دراسة وجوه التناسب في القرآن الكريم؛ كتناسب السور، وتناسب السورة الواحدة، وتناسب الآيات، وتناسب الفواصل، وتناسب التعقيبات القرآنية مع ما سبقها من الكلام.

وإلى جانب ذلك أيضا، فهي تزخر بمباحث أخرى مهمة جدا، لها علاقة ببيان معاني المفردات التي تستفاد من تغير الألفاظ وبعض الزيادات، وبيان معاني التركيب؛ كبيان المحذوف من الجملة الذي يستفاد من بعض الزيادات أيضاً، ونحو ذلك، وفوائد أخرى لها علاقة بالبحث الموضوعي تستفاد من مقارنة النصوص المتشابهة، وملاحظة ما يَجد في كل سياق؛ من مراعاة مناسبة، أو فكرة مضافة، أو نحو ذلك مما يساعد على استكمال عناصر الموضوع، المنثورة في القرآن العظيم.

سابعا: كتب توجيه القراءات

وهي أيضا من المصادر الهامة لتفسير القرآن بالقرآن، عنيت بتوجيه القراءات المتواترة والشاذة أيضاً، وبيان عللها وحججها والترجيح بينها. وفي خضم هذا التوجيه وهذا التعليل تكشف عن تنوع الأداء الصوتي والمعنوي في قراءات القرآن، وتقف على دقائق وأسرار نفيسة من معاني هذه القراءات، وتجد في بحر القرآن ما يشهد لهذه المعاني وهذه الأسرار، ويؤكد أنها جميعاً مقصودة في كلام الله تعالى.

وهذا الاستدلال بالقرآن جعل هذه المصنفات مليئة بمباحث هامة من تفسير القرآن بالقرآن؛ تَنوَّع فيها المبيِّن والمبيَّن معاً.

فمن الأول: الاستدلال بتناسب السور، وتناسب الآي، وتناسب التعقيبات، وتناسب التقابل، وبالقراءات المتواترة، والقراءات الشاذة، وبقرينة النص، وظاهر النص، وبالآيات النظيرة في الموضوع، أو الشبيهة في الأسلوب، وبعادة القرآن والغالب فيه، وبما كثر وروده فيه، ونحو ذلك ..

ومن الثاني: بيان معاني المفردات، والجمع بينها عند تعددها إذا أمكن، والترجيح بينها إذا تعذر الجمع وظهر المرجِّح، وبيان معاني التركيب؛ كبيان الوقف والابتداء، وبيان المحذوف من الجملة، وبيان سبب اختيار صيغة البناء للفاعل أو البناء للمفعول، وبيان سبب اختيار صيغة الخطاب أو صيغة الإخبار. وبيان معاني أساليب القرآن، ونحو ذلك من المباحث النفيسة، التي تساعد على فهم هذا الكتاب العزيز ..



ثامنا: كتب الناسخ والمنسوخ

وهي من مظان تفسير القرآن بالقرآن، لاختصاصها ببيان الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى، وهو وجه من وجوه هذا اللون من التفسير. ووجه تعلقه واضح، ومن ذلك:

أولا: ما يحصل فيه من معرفة البدل والمبدَل منه من أحكام القرآن، بحيث يكون النص القرآني المتأخر في النزول رافعاً لحكم النص المتقدم، وبدلاً منه، على التعريف الراجح لمصطلح النسخ، أو دالاً على انتفاء الحكم الأول، على اختيار من حدَّ النسخ بأنه الخطاب الدال على انتفاء الحكم الشرعي[1]، أو مبيِّناً لوقت انتهاء الحكم الأول، على اختيار الآخرين الذين عرفوا النسخ ببيان انتهاء الحكم المتقدم[2]، فالنص الثاني عند العلماء بحسب تعريفاتهم إما رافع للحكم المتقدم، أو دال على انتفائه، أو مبيِّن لوقت انتهائه، وكل ذلك من صميم تفسير القرآن بالقرآن.

ثانيا: ما يحصل فيه من توجيه المتعارض من نصوص القرآن الكريم في الموضوع الواحد، وهو أيضا وجه من وجوه هذا اللون من التفسير.

تاسعا: كتب التفسير الموضوعي

وهي من مصادر تفسير القرآن بالقرآن لاستقلالها بمبحث من مباحثه، وهو بيان موضوعات القرآن الكريم، ولعله أهم ما تتميز به هذه المصنفات عن غيرها من مظان هذا الفن.. وهو مبحث هام من مباحث تفسير القرآن بالقرآن، لما فيه من حمل بعض كتاب الله تعالى على بعض حتى يكتمل الموضوع، وتتناسق جزئياته، ويستوي بناؤه، ولذلك سمي بالتفسير الموضوعي.

عاشرا: كتب التفسير حسب ترتيب المصحف

وهي من أوسع مظان تفسير القرآن بالقرآن، لاستيعابها جميع آيات القرآن أو معظمها بالبيان، ولاستفادتها من جميع المصنفات المذكورة سابقا، التي استقلت بدراسة جوانب محددة من القرآن الكريم،

[1] انظر البحر المحيط في أصول الفقه 4/ 65

[2] انظر المصدر السابق 4/ 66 - 67



ولذلك تميزت هذه التفاسير على اختلاف مناهجها واهتماماتها بوفرة مادة هذا الفن وتنوعها، على تفاوت بينها في حجم هذه العناية، واختلاف في الجوانب التي طرقتها.

الخاتمة:

وفي الختام نقول إن هذا الأصل العظيم له قيمة جليلة في تفسير القرآن العظيم، وبيان معانيه وأحكامه وقضاياه، وهذا واضح جلي من مجموع المباحث السابقة، والحاجة إلى العناية به بجمع تراثه ودراسة مباحثه ووجوهه أكيدة لخدمة أصول التفسير وقواعده.